الآفة الحادية والعشرون
التنطع أو الغلو فى الدين

والآفة الحادية والعشرون التى أصابت، وتصيب نفرًا من العاملين لدين الله، وتكاد تهوى بأصحابها فى أودية الهلاك، ومهاوى الضلال إنما هى : « التنطع أو الغلو فى الدين » .

وحتى يكون لدينا تصور واضح، أو قريب من الواضح عن أبعاد ومعالم هذه الآفة، فإننا سنعرض لها على النحو التالى :

أولا : ماهية التنطع أو الغلو فى الدين :

لغة : التنطع فى أصل وضعه اللغوى، مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى فى الفم، أو الجلدة الملتزقة بآخر الفك العلوى من الفم، وبها آثار كالتحزيز، وعندها موقع اللسان فى الحنك . ثم استعمل فى كل تَعَمُّقٍ قولا، وفعلا، يقال : تنطع فى الكلام وتنطس، إذا تأنق فيه، وتشدق، وتعمق، وتنطع فى الفعل إذا تكلف فيه، وأتى بما يشق به على نفسه، وعلى غيره[1] .

والغلو لغة : هو الارتفاع، أو الإفراط، ومجاوزة الحد أو القدر فى كل شىء، تقول : غلا فى الدين، وغلا فى الأمر غلوًا، جاوز حده، وفى التنزيل : ﴿ **لا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ** ﴾ [النساء : ١٧١] أى لا تفرطوا فيه، ولا تتجاوزوا حد الاعتدال، أو حد التوسط[2] .

اصطلاحا : أما معنى التنطع أو الغلو فى الدين فى الاصطلاح الإسلامى فإنما هو: التعمق، أو الإفراط، أو مجاوزة الحد فى الأقوال والأعمال[3] ، وبعبارة أخرى : هو

---

(١) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ١٥٣، ولسان العرب لابن منظور ٨/ ٣٥٧، مادة (نطع) بتصرف .

(٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ١٦٩، ولسان العرب لابن منظور ١٥/ ١٣١، ١٣٤ بتصرف كثير .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووى ١٦/ ٢٢٠ .

تحميل الأقوال، أو الكلمات والأعمال فوق ما تحتمل، والتنطع بهذا المعنى يساوى الغلو، كما يساوى التشدد فى الدين، وقد جاء التحذير من هذا كله فى كتاب الله، وعلى لسان النبى ﷺ وصحابته، وسائر السلف، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ محذرًا أهل الكتاب من الغلو فى الدين : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١)** ﴾ [النساء]، ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)** ﴾ [المائدة] .

ويقول النبى ﷺ : « هلك المتنطعون »(١)، قالها : ثلاثًا .

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه : والذى لا إله إلا هو، ما رأيت أحدًا كان أشدَّ على المتنطعين من رسول الله ﷺ، وما رأيت أحدًا كان أشد عليهم من أبى بكر، وإنى لأرى عمر كان أشدَّ خوفًا عليهم، أو لهم (٢) .

ويقول أيضًا : عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب بأصحابه، عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدرى متى يفتقر إليه، أو يفتقر إلى ما عنده، إنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق (٣) .

ويقول نافع مولى عبد الله : إن صبيغًا العراقى جعل يسأل عن أشياء من القرآن فى أجناد المسلمين، حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص، إلى عمر بن الخطاب، فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه، فقال : أين الرجل ؟ فقال : فى الرحل، قال عمر : أبصر أن يكون ذهب، فتصيبك منى العقوبة الموجعة، فأتاه به، فقال عمر : تسأل

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب العلم : باب هلك المتنطعون ٤/ ٢٠٥٥ رقم (٢٦٧٠)، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب فى لزوم الجماعة ٤/ ٢٠١ رقم (٤٦٠٨)، وأحمد فى : المسند ١/ ٣٨٦ كلهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع، والتبدع ١/ ٥٣ من حديث عبد الله بن مسعود موقوفًا عليه بهذا اللفظ .

(٣) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع، والتبدع ١/ ٥٤ من حديث أبى قلابة موقوفًا على ابن مسعود بهذا اللفظ .

محدثة؟ فأرسل إلى رطائب من جريد، فضربه بها حتى ترك ظهره دبره[١] ، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود له، قال : فقال صبيغ : إن كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا، وإن كنت تريد أن تداوينى، فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى ألا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر أن قد حسنت توبته، فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته[٢] .

ويقول مسروق: كنت أمشى مع أبى بن كعب، فقال فتى: ما تقول يا عماه، كذا، وكذا، فقال: يا ابن أخى، أكان هذا ؟ قال: لا، قال: فاعفنا حتى يكون[٣] .

ويقول الصلت بن راشد : سألت طاووسًا عن مسألة، فقال لى : كان هذا ؟ قلت: نعم، قال : آلله ؟ قلت : آلله، ثم قال : إن أصحابنا أخبرونا عن معاذ بن جبل، أنه قال : أيها الناس لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله، فيذهب بكم هنا وهنا، فإنكم إن لم تعجلوا بالبلاء قبل نزوله، لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سدد، وإذا قال وفق[٤] .

ويقول إسماعيل بن أبى خالد، سمعت عامرًا يقول : استفتى رجل أبىَّ ابن كعب فقال: يا أبا المنذر، ما تقول فى كذا وكذا ؟ قال: يا بنى أكان الذى سألتنى عنه ؟ قال : لا، قال : أمَّا لا، فأجلنى حتى يكون، فنعالج أنفسنا، حتى نخبرك[٥] .

ويقول حماد بن يزيد المقرئ : حدثنى أبى، قال : جاء رجل يومًا إلى ابن عمر، فسأله عن شىء لا أدرى ما هو، فقال ابن عمر : لا تسأل عما لم يكن، فإنى سمعت عمر بن الخطاب يلعن من يسأل عما لم يكن[٦] وغير هذا كثير .

---

(١) دبره : أى قرحةً، إذ الدبر بالتحريك هو الجرح الذى يكون فى ظهر البعير، انظر : النهاية ٢/ ١١ .

(٢) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع ١/ ٥٥، ٥٦ من حديث ابن عجلان، عن نافع مولى ابن عمر، موقوفًا على عمر بهذا اللفظ.

(٣) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع ١/ ٥٦ من حديث مسروق موقوفًا على أبى بن كعب بهذا اللفظ .

(٤) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع ١/ ٥٦ من حديث طاووس موقوفًا على معاذ بهذا اللفظ .

(٥) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع ١/ ٥٦ من حديث عامر موقوفًا على معاذ بن جبل بهذا اللفظ .

(٦) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع ١/ ٥٠ من حديث حمَّاد بن يزيد المقرئ، عن أبيه موقوفًا على ابن عمر بهذا اللفظ .

ثانيًا : مظاهر التنطع أو الغلو فى الدين :

ومظاهر التنطع أو الغلو فى الدين كثيرة، نذكر منها :

١ ـ كثرة الافتراضات، والسؤالات عما لم يقع، أو عما عفا الله ـ عز وجل ـ عنه، وسكت، حيث يقول سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)** ﴾ [المائدة] .

٢ ـ المبالغة فى التطوع المفضى إلى ترك الأفضل، أو تضييع الواجب، كمن بات يصلى الليل كله، ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه فى آخر الليل فنام عن صلاة الصبح فى الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة .

٣ ـ العدول عن الرخصة فى موضعها إلى العزيمة، كمن يباح له التيمم عند العجز عن استعمال الماء، فيترك التيمم، ويصر على استعمال الماء فيفضى به ذلك إلى ضرر فى بدنه .

٤ ـ الاشتغال بمسائل الفروع على حساب الأصول، أو استفراغ الجهد فى المختلف فيه، مع إهمال المجمع، أو المتفق عليه، كمن يركز على مسائل السواك، أو قصر الثوب، والعذبة ونحوها، ويهمل قضية تعطيل شرع الله فى الأرض، أو كمن يقضى وقته فى قضية الجهر بالبسملة، أو الإسرار بها، وكذلك قضية وضع اليدين فى الصلاة: هل على السرة، أو فوقها، أو تحتها ؟ ويهمل الحديث عن انتشار الخمور، وتفشى البغاء، وسفك الدماء، وتتبع العورات، والإفساد فى الأرض .

٥ ـ التكفير بالمعصية، أو بالكبيرة، بل تكفير من لم يكفر الكافر، وكذلك جعل الأصل فى الأشياء الحظر، أو الحرمة، مع أن القاعدة أن الأصل فى الأشياء الإباحة، أو الحل، إلا ما جاء النص بخلافه .

٦ ـ إحياء الكلام فى المسائل التى فرضتها ظروف معينة، ثم انتهت بانتهاء هذه الظروف، مثل الكلام فى مسائل الصفات، وخلق القرآن، والخلاف الذى نجم بين الصحابة، ونحو ذلك [١] .

---

[١] انظر السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للغزالى : المقدمة ص ٧ ـ ١٢ بتصرف كثير .

ثالثًا : أسباب التنطع، أو الغلو فى الدين :

ويوقع فى التنطع أو الغلو فى الدين أسباب عدَّة، وبواعث كثيرة نذكر منها :

١ ـ البيئة :

فقد ينشأ الإنسان فى بيئة شأنها الغلو، أو التنطع سواء أكانت بيئة قريبة، ونعنى بها البيت، أم بيئة بعيدة، ونعنى بها مجتمع الأصحاب، والأصدقاء، وليست لديه حصانة فكرية، فيحاول الاقتداء، والتأسى، أو على الأقل المحاكاة والتشبه، وحينئذ يقع فى آفة التنطع أو الغلو .

٢ ـ التكوين النفسى والفكرى :

وقد يكون التكوين النفسى والفكرى لنفر من الناس من وراء الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو، كأن يحرم هؤلاء من المربى أو الموجه الذى يرشدهم، ويوجههم إلى بعد النظر، واتساع الأفق، فينشئون على الوقوف عند الشكليات والقشور، مهملين اللباب والجوهر، وذلك هو عين التنطع، أو الغلو .

٣ ـ الذكاء مع الفراغ، وعدم البصيرة بالأولويات :

وقد يمن الله ـ عز وجل ـ على إنسان ما، بقدر من الذكاء الفطرى ولكنه يعيش فى فراغ، مع عدم البصيرة بالأولويات، ويحاول ـ شأنه شأن أى إنسان آخر ـ توظيف هذا الذكاء، وشغل ذلك الفراغ، وحينئذ يكون فريسة آفة التنطع، أو الغلو، إذ أن من سمات النفس البشرية أن صاحبها إن لم يشغلها بالحق، شغلته بالباطل .

٤ ـ الاعتماد على النفس من أول الأمر فى تحصيل العلم، أو المعرفة:

وقد تكون لدى المسلم الرغبة فى تحصيل العلم، أو المعرفة، ولا دراية له بالطريق فيأخذ فى الاعتماد على نفسه من أول الأمر فى تحصيل هذا العلم، أو هذه المعرفة، ويجعل جلَّ اهتمامه الكتب، فتجنح به هذه الكتب نحو التنطع أو الغلو، نظرًا لأن الكتاب وجهة، أو وجهات نظر صامتة، لا تملك القدرة على رد التساؤلات التى تثيرها قراءة هذا الكتاب أو الاطلاع عليه، أو التى يثيرها الواقع نفسه .

بينما لو كان تحصيل هذا العلم، أو هذه المعرفة بواسطة مربٍّ أو موجه فإن هذا المربى، أو هذا الموجه لسعة اطلاعه، وتجربته، وبصيرته النافذة يمكنه الردَّ على كل هذه التساؤلات، بل حتى على الشبهات إن وجدت .

٥ ـ الأخذ أو التلقى عن الجاهلين :

وقد تكون لدى المسلم الرغبة فى تحصيل العلم أو المعرفة، ولا يعرف على يد من يكون الأخذ، أو التلقى، وتلقى به المقادير فى أيد الجاهلين وتصير العاقبة الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو .

ولعل هذا هو ما أشار إليه النبىﷺ حين قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رءوسًا جهالا فأفتوا بغير علم، فضلوا، وأضلوا »[(١)] .

ولا جرم أن نشير هنا إلى أن المراد بالجهل بالدين ليس هو الجهل المطلق، إذ هذا الجهل المطلق يفضى بصاحبه عادةً إلى الانحلال والتسيب لا إلى التنطع أو الغلو، وإنما المراد به الجهل بالاجتهاد وأسلوبه أو طريقته، إذ هو المفضى إلى التنطع أو الغلو .

٦ ـ خلو الساحة أو الميدان من العلماء الذين يضبطون الفكر والتصور بل والسلوك:

وقد يكون خلو الساحة أو الميدان من العلماء الذين يضبطون الفكر والتصور بل والسلوك، هو السبب فى الوقوع فى آفة التنطع، أو الغلو، ولاسيما إذا كانت هناك حماسة أو قوة إيمان وعاطفة تدفع إلى العلم لدين الله، والتمكين له فى الأرض، على نحو ما وقع لنفر من شباب الصحوة الإسلامية اليوم، فقد شاهدوا انكماش العلماء، وغيابهم من الميدان أو الساحة إيثارًا للعافية، والسلامة، وتقدموا هم لحمل الراية، واعتمدوا على أنفسهم فى الفقه أو الاستنباط، فكان الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو .

٧ ـ تعطيل شرع الله فى الأرض :

وقد يكون تعطيل شرع الله فى الأرض، وما نتج عنه من انتشار أو ذيوع الشر والفساد وراء الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو، كرد فعل مضاد لذلك، على نحو ما وقع لنفر من أبناء أمتنا المسلمة فى هذا العصر، فقد رأى شرع الله معطلا، والشر والفساد

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب كيف يقبض العلم ١/ ٣٣، ٣٤، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب ما يذكر من ذم الرأى، وتكلف القياس ٨/ ١٤٨، ومسلم فى: الصحيح: كتاب العلم : باب رفع العلم وقبضه ٤/ ٢٠٥٨، (٢٦٧٣)، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب منه ٥/ ٣١ رقم (٢٦٥٢)، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب اجتناب الرأى والقياس ١/ ٢٠ رقم (٥٢)، كلهم من حديث عروة بن الزبير، عن عبد الله بن عمرو، مرفوعًا، واللفظ للبخارى، وعقَّب الترمذى على حديثه قائلا : « هذا حديث حسن صحيح » .

على أشده، فحمله حبه لدينه، وحرصه على مرضاة ربه، أن ينبرى وحده للعمل دون أن يكون معه موجه أو مرب، فتردى فى آفة التنطع أو الغلو .

٨ ـ الحظوظ النفسية :

وقد تكون الحظوظ النفسية من حب الذيوع والشهرة،أو الثناء والمحمدة، أو المغنم والجاه، من وراء الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو، من منطلق أن التنطع أو الغلو يحمل فى طياته غالبًا كل شاذٍّ وغريب، والشواذ والغرائب من بين ما يكسب الذيوع والشهرة، أو الثناء والمحمدة، بل ربما توصل إلى المغنم والجاه، تطبيقًا لمبدأ : « خالف تعرف، وتغنم » .

٩ ـ الرغبة فى تحقيق مزيد من القرب من الله مع الغفلة عن أبعاد ومعالم الطريق :

وقد تكون الرغبة فى تحقيق مزيد من القرب من الله مع الغفلة عن أبعاد ومعالم الطريق، من وراء الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو .

وقد نقل عن نفر من الصحابة ما يؤكد ذلك، إذ جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فى السر، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، وقالوا : أين نحن من النبى ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر ؟ قال أحدهم: أمَّا أنا فأصلى الليل أبدًا، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر لا أفطر، وقال الثالث : وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا، وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى، وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى» (١) .

١٠ ـ الإغراء بالدنيا :

وقد يكون الإغراء بالدنيا ممثلةً فى الجاه، والمركز، والمنصب، أو فى المال، أو فى تذليل صعوبة من الصعوبات، أو تخطى عقبة من العقبات، أو نحو ذلك، قد يكون ذلك كله من العوامل التى توقع فى آفة التنطع أو الغلو، ولاسيما إذا كان هذا الإغراء لأناس ليست لديهم الحصانة الفكرية، والنفسية، على نحو ما ذكر الأستاذ المرحوم عمر التلمسانى فى بعض أحاديثه من أن السلطات فى بعض البلاد الإسلامية والعربية قد أقطعت بعض الجماعات الغالية أو التى لديها استعداد للغلو، أقطعتها أرضًا لفلحها، وزراعتها ، والانتفاع بخيرها بهدف تشجيع التنطع أو الغلو ، فى مواجهة التوسط

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الأول، آفة : « الفتور » .

والاعتدال الذى عرفت به الجماعة التى هى كبرى الحركات الإسلامية فى العصر الحديث .

١١ ـ الكراهية للإسلام مع التظاهر بحبِّه :

وقد تكون الكراهية للإسلام مع التظاهر بحبه وراء الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو، على نحو ما وقع من عبد الله بن سبأ اليهودى، ومغالاته فى شأن سيدنا على ﷺ من أنه حلَّ فى الإله، أو هو الإله، وأنه لم يمت، وإنما رفع إلى السماء، وأن الرعد صوته، والبرق نوره وسناؤه، وما تبع ذلك من الغلو فى شأن الأئمة، وادعاء العصمة لهم .

١٢ ـ الشدة أو الإكراه والضغط :

وقد تكون الشدة، أو الإكراه، والضغط ـ سواء من البيت، أو المجتمع، أو الدولة ـ من بين العوامل، أو البواعث التى تدفع إلى الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو، على نحو ما وقع لنفر من أبناء الحركة الإسلامية اليوم، فقد رأوا الجلادين يصنعون بهم ما يجلُّ عن الوصف، وما جعل الكلاب البوليسية، تتحول إلى عض، وإيذاء هؤلاء الجلادين لأولئك الأبرياء، لا لشىء إلا لأنهم قالوا : ربنا الله، فانقلبوا يحكمون على هؤلاء، بل على المجتمع كله لسكوته على هذا المنكر، أو هذا الصنيع بالكفر، فوقعوا فى آفة التنطع أو الغلو .

١٣ ـ الهجوم العلنى والتآمر الخفى على الأمة الإسلامية :

ذلك أن الأمة الإسلامية فى كل أقطار الأرض لقيت، وما زالت تلقى هجومًا شرسًا عليها، وعلى حرماتها، ومقدساتها، مرة فى صورة علنية، وأخرى فى صورة سرية أو خفية، ويشارك فى هذا الهجوم كل القوى غير المسلمة من يهودية وصليبية، وشيوعية، ووثنية، وذيول هؤلاء وأذنابهم من أبنائنا نحن المسلمين من كلٍّ من غرهم بريق المادية فى الشرق أو فى الغرب، ولا يسع مسلمًا يؤمن بالله والدار الآخرة، ويوقن بالأخوة الإسلامية، ويعتز بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، ويفهم أن المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ـ أقول : لا يسعه أن يسمع، ويرى مآسى أمته فى كل مكان، وما يلقاه إخوانه هنا وهناك من إبادة مادية تتمثل فى التقتيل والتنكيل، أو معنوية تتمثل فى التنصير أو على الأقل : التجهيل والتضليل، ثم يمسى، ويصبح قرير العين، ضاحكًا ملء سنه، نائمًا ملء جفنيه، بل لا بد أن يخامره شعور قوى وأكيد بضرورة التصدى ، والمواجهة ، وحين يأخذ فى التصدى ، والمواجهة يصيبه

ما يصيب أى إنسان يبصر أمته وقد تكالب عليها الأعداء من كل مكان تكالب الأكلة على القصعة، من التنطع أو الغلو .

١٤ ـ التصدر للفتوى والاجتهاد قبل الاستواء وكمال النضج :

وقد يكون التصدر للفتوى والاجتهاد قبل الاستواء وكمال النضج: من ضرورة ربط الجزئيات بالكليات، ورد المتشابهات إلى المحكمات، وتحاكم الظنيات إلى القطعيات، والقدرة على الجمع بين المختلفات عند التعارض أو

الترجيح، وعدم الأخذ بظاهر النص، إلا بعد التغلغل فى فهم فحواه، ومعرفة أهدافه ومقاصده، قد يكون ذلك من أسباب الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو فى الدين .

١٥ ـ نسيان العواقب المترتبة على الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو فى الدين :

وقد يكون نسيان العواقب المترتبة على الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو فى الدين من بين الأسباب التى توقع فى هذا التنطع أو الغلو، إذ الإنسان إذا نسى عاقبة الشىء تجرأ على فعله، وتعاطيه، وإن كان فيه حتفه وهلاكه، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] .

رابعًا : آثار التنطع أو الغلو فى الدين :

وللتنطع أو الغلو فى الدين آثار ضارة، وعواقب مهلكة، سواء على العاملين أو العمل الإسلامى، ودونك طرفًا من هذه الآثار، وتلك العواقب:

أ ـ على العاملين :

أما آثار التنطع أو الغلو فى الدين على العاملين، فكثيرة، نذكر منها :

١ ـ كراهية الناس، ونفورهم من المتنطع أو المغالى فى الدين :

ذلك أن المتنطع أو المغالى فى الدين، إنما هو واقف فى الطرف بعيدًا عن الوسط، فكرًا كان ذلك أو سلوكًا، ومثل هذا لا تحتمله طبيعة البشر العادية، ولا تصبر عليه، ولو صبر عليه قليل منهم، لم يصبر عليه جمهورهم، وحينئذ يكون النفور، وتكون الكراهية .

ولعل هذا الأثر هو ما أشار إليه النبى ﷺ فى حديث أبى مسعود إذ قال : إن رجلا قال : يا رسول الله، إنى لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان، مما يطيل بنا، فما رأيت رسول الله ﷺ فى موعظة أشد غضبًا منه يومئذ، ثم قال : « إن منكم

منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم الضعيف، والكبير وذا الحاجة»[١]، وما أشار إليه عمر ﷺ بقوله : « لا تُبغِّضُوا الله إلى عباده، فيكون أحدهم إمامًا، فيطوِّل على القوم الصلاة حتى يُبَغِّض إليهم ما هم فيه »[٢].

٢ ـ الفتور أو الانقطاع :

ذلك أن التنطع، أو الغلو قصير العمر، والاستمرار عليه فى العادة غير متيسر إذ الإنسان ملول، وطاقته محدودة، فإن صبر يومًا على التشدد والتعسر فسرعان ما تكل دابته، أو تحرن عليه مطيته فى السير، ونعنى بها جهده البدنى، والنفسى، فيسأم، ويدع العمل حتى القليل منه أو يأخذ طريقًا آخر، على عكس الطريق الذى كان عليه، أى ينتقل من الإفراط إلى التفريط، ومن التشدد إلى التسيب .

ولعل هذا هو ما أشار إليه النبى ﷺ بقوله : « اكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب العمل إلى الله أدومه، وإن قل »[٣]. وحديث ابن عباس : قال : كانت مولاة للنبى ﷺ تصوم النهار، وتقوم الليل، فقيل له : إنها تصوم النهار، وتقوم الليل فقال ﷺ : « إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى »[٤].

٣ ـ تضييع العمر، وتبديد الجهد فى غير ما طائل ولا فائدة :

وذلك أن جهد المتنطع أو المغالى إنما هو مصروف إلى ثانويات الأمور فكرًا أو سلوكًا، دون أصولها، وهو بهذا يضيع عمره، ويبدد جهده فى غير ما طائل ولا فائدة،

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب الغضب فى الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره ١/ ٣٣، ٣٤ : وكتاب الصلاة : باب تخفيف الإمام فى القيام، وإتمام الركوع والسجود، وباب من شكا إمامه إذا طوّل ١/ ١٨٠، وكتاب الأدب : باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله ٨/ ٣٣، وكتاب الأحكام : باب هل يقضى الحاكم، أو يفتى وهو غضبان ٩/ ٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الصلاة : باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة فى تمام ١/ ٣٤٠، ٣٤١ رقم (٤٦٦)، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب العلم : باب الغضب عند الموعظة والتعليم إذا رأى العالم ما يكره ٣ / ٤٤٩ رقم (٥٨٩١)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الصلاة : باب من أمّ قومًا فليخفف ١/ ٣١٥ رقم (٩٨٤) كلهم من حديث أبى مسعود البدرى ﷺ مرفوعًا .

(٢) الأثر أورده البيهقى فى : شعب الإيمان، موقوفًا على عمر، وعنه نقل الحافظ ابن حجر فى : فتح البارى ٢/ ١٩٥ قائلا : « وروى البيهقى فى الشعب بإسناد صحيح، عن عمر » وساق الحديث . وأورده الدكتور يوسف القرضاوى فى الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٣٠ دون أن يعزوه إلى أحد .

(٣) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الأول، آفة : « الفتور » .

(٤) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الصلاة : باب الاقتصاد فى العمل والدوام عليه ٢/ ٢٥٨، ٢٥٩ من حديث ابن عباس مرفوعًا بهذا اللفظ وعزاه إلى البزار قائلا : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » .

وصدق الله الذى يقول: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف] ، إذ يفسر الحافظ ابن كثير هذه الآية، فيسوق طائفة من الأخبار عن السلف حول معناها قائلا: « قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن مصعب، قال: سألت أبى ـ يعنى : سعد بن أبى وقاص ـ عن قول الله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا، هم : اليهود، والنصارى، أما اليهود، فكذبوا محمداً ﷺ وأما النصارى، فكفروا بالجنة، وقالوا : لا طعام فيها، ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد ﷺ يسميهم الفاسقين، وقال على بن أبى طالب، والضحاك، وغير واحد هم الحرورية » (١) .

ثم يبدى رأيه فيها بعد ذلك، فيقول : « ومعنى هذا عن على ﷺ أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية، كما تشمل اليهود، والنصارى، وغيرهم، لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هى أعمُّ من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية، يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود . . . » (٢) .

٤ ـ التقصير فى حقوق الآخرين :

وذلك أن المتنطع أو المغالى إنما يدور فى فلك معين من الفكر والسلوك الأمر الذى ينتهى به إلى التقصير فى حقوق يجب أن تراعى، وواجبات ينبغى أن تؤدى.

ولعل ذلك هو ما حدا برسول الله ﷺ أن يقول لعبد الله بن عمرو بن العاص ـ وقد بلغه انهماكه فى العبادة، انهماكًا أنساه حق أهله عليه : « ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل ؟ »، ويجيبه عبد الله بقوله : بلى يا رسول الله، ويرد عليه النبى ﷺ ناصحًا، وموجهًا: «لا تفعل: صم، وأفطر، وقم، ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا » (٣) .

(١، ٢) انظر : تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٣/ ١٠٧ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصوم : باب حق الجسم فى الصوم، وباب حق الأهل فى الصوم ٣/ ٥١، ٥٢، ومسلم فى الصحيح : كتاب الصيام : باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به، أو فوّت به حقًا ٢/ ٨١٣ ـ ٨١٨ رقم (١١٥٩)، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب الصوم : باب صوم يوم وإفطار يوم ٢/ ١٢٨ رقم (٢٦٩٩)، وباب صوم عشرة أيام من الشهر ٢/ ١٣٢ رقم (٢٧٠٩) كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ مرفوعًا، واللفظ للبخارى .

٥ ـ القلق والاضطراب النفسى :

وذلك أن المتنطع أو المغالى إنما يريد حمل الآخرين على ما يوافق هواه وما يريد، وما الآخرون بمستجيبين له، ولا بموافقيه فيما يهوى، وفيما يريد، وتكون العاقبة حينئذ القلق، والاضطراب النفسى، بل العدوان على الآخرين، حيث لم تتحقق رغبته، ولم تجب طلبته .

وإن الواقع المعاش ليشهد بذلك، حتى إنا لنرى المتنطعين أو المغالين أضيق الناس صدرًا، وأشدهم قلقًا واضطرابًا، وأكثرهم فورانًا وغضبًا، بل ربما استخدامًا للقوة، لحمل الآخرين على ما يريدون .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثاره على العمل الإسلامى فكثيرة، نذكر منها :

١ ـ الفرقة والتمزق :

ذلك أن المغالين أو المتنطعين ؛ لقصور الفهم لديهم، لا يلتقون على رأى واحد، ولا يقبل الآخرون رأيهم ، وحينئذ تكون الفرقة ، ويكون التمزق ، ولعل ذلك هو ما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما إذ خلا عمر رضي الله عنه ذات يوم، فجعل يحدث نفسه، كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد ؟ فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال : كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة، وكتابها واحد ؟ فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين، إنما أنزل علينا القرآن، فقرأناه وعلمنا فيما أنزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن، ولا يدرون فيما نزل، فيكون لكل قوم فيه رأى، فإذا كان كذلك اختلفوا . وفى رواية: فيكون لكل قوم فيه رأى، فإذا كان لكل قوم فيه رأى اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا . فزجره عمر، وانتهره على . . . فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه وقال : أعد على ما قلته، فأعاد عليه، فعرف قوله : وأعجبه (١) .

٢ ـ كثرة التكاليف، وطول الطريق :

ذلك أن التنطع أو الغلو مكروه منفر، الأمر الذى يعطى المتربصين بالعمل الإسلامى الفرصة لتوجيه الضربة بعد الضربة من أجل القضاء على هذا العمل أو على الأقل إجهاضه بحجة التشدد، أو التزمت، وحينئذ تكثر التكاليف وتطول الطريق .

---

(١) الأثر أورده الشاطبى فى : الاعتصام ٢/١٨٣، وعنه نقل الدكتور يوسف القرضاوى فى : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٨٧ .

٣ ـ الحيلولة دون كسب الأنصار :

ذلك أن العنف أو الشدة التى هى من لوازم التنطع أو الغلو، تحول دون كسب الأنصار، فقد جبلت النفوس على حبٍّ من أحسن إليها، ورفق بها، وعلى بغض من أساء إليها، وقسا عليها، وحسبنا أن نجاحه ﷺ فى دعوته، ما كان إلا بالرفق، واللين: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

خامسًا : علاج التنطع أو الغلو فى الدين :

وعلى ضوء ما قدمنا من أسباب للتنطع، أو الغلو فى الدين ندرك طريق العلاج وتتلخص فى الخطوات التالية :

١ ـ تطبيق حكم الله فى الأرض: عقيدة، وعبادة، أخلاقًا، ونظمًا، أو تشريعات، فكرًا وسلوكًا، وعلى كل المستويات : الفردية، والجماعية، الشعبية والقيادية، فإن هذا من شأنه أن يشبع الميول الفطرية الكامنة عند هؤلاء، فيستريحوا من القلق والاضطراب النفسى، بل من محاولة التنفيس عن هذا القلق وذلك الاضطراب بواسطة العنف والقوة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه سيقضى على كل مظاهر الشر والفساد التى تثير هؤلاء، وتميل بهم نحو التنطع أو الغلو : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم]، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة] ، ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه]، ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة] .

٢ ـ تشجيع العلماء العاملين، والدعاة المجاهدين، على أداء دورهم، والقيام بواجبهم نحو الإسلام، والمسلمين بعامة، والمعروفين بالتنطع أو الغلو، وذلك برفع سوط الملاحقة، والمتابعة من فوق ظهور هؤلاء ومنحهم حرية التعبير عما تفرضه عليهم الأمانة التى كلفهم الله ـ عز وجل ـ بها، وحملهم إياها، فإن ذلك له دور كبير فى القضاء على التنطع أو الغلو فى الدين .

٣ ـ التبصير بفقه العبودية، والدعوة إلى الله، والفتوى، من ترتيب الأولويات، ومن معرفة بمقاصد الشريعة، وكلياتها، ومن فهم للنصوص فى ضوء بعضها البعض، ومن إلمام بمراتب الأحكام، وطريق ثبوتها، والعلاقة بينها عند التعارض، ومن رعاية لأدب الخلاف، وعن العلم بقيم الأعمال، ومراتبها، ومراتب المأمورات، والمنهيات، بل

مراتب الناس مع الأعمال، وتقدير ظروف الناس، وأعذارهم، ومن الإلمام بسنن الله فى خلقه : الكونية منها، والشرعية، ولاسيما سنن وشروط النصر، فإن هذا التبصير كاف فى القضاء على التنطع، أو الغلو، وقد أمر الله ـ عز وجل ـ بهذا فقال : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

٤ ـ دوام النظر فى التاريخ البشرى بعامة، والإسلامى بخاصة، فإن هذا التاريخ حافل بالنماذج الحية من المتنطعين أو المغالين فى الدين والآثار السيئة التى جناها هؤلاء من وراء التنطع أو الغلو، وهى حافلة كذلك بكيفية التعامل مع هذه الظاهرة والقضاء عليها ومن أبرز هذه النماذج : أهل الكتاب، الحركة السبئية، الحركة الشيعية .

٥ ـ معاملة هؤلاء المتنطعين أو المغالين فى الدين بروح الأبوة، والأخوة من الحنو، والرحمة، والحب، والشفقة، فنخالطهم، ونتعرف عليهم من قرب: كيف يفكرون، وكيف يشعرون، وكيف يسلكون، وكيف يتعاملون، ولا نحكم على الكثرة بحكم القلة، ولا على الواحد بما يقع منه من تصرف، أو تصرفين، وإنما بمجموع تصرفاته، فمن رجحت كفة حسناته على كفة سيئاته، فهو من أهل الخير، كما يعامل الله سبحانه عباده : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) ﴾ [المؤمنون] .

وألا نبالغ فى تصوير، أو مخالفات هؤلاء، على حين نسكت عن أخطاء غيرهم من كل ما يعرف بالتفريط، أو بالتطرف اللادينى، وأن نشيع جو الحرية، ونرحب بالنقد، ونحيى روح النصيحة فى الدين، ونقول ما قال عمر رضي الله عنه : مرحبًا بالناصح أبد الدهر، مرحبًا بالناصح غدوًا وعشيًا . . رحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوبى .

ونحاكيه عمليًا، إذ قال له رجل : اتق الله يا أمير المؤمنين، فأنكر عليه بعض الحاضرين، ورد عليه عمر بقوله : « دعه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها » .

وأن نتجنب اللجوء إلى القوة، والبطش لتصفية هذا الفكر، ومطاردة أهله، فإنه يختفى بالاضطهاد، ولا يموت، ويكمن كمون النار فى الكبريت، ولا يزول .

٦ ـ لفت النظر إلى الآثار والعواقب المترتبة على التنطع أو الغلو، سواء منها على العاملين، أو على العمل الإسلامى، فلعل ذلك يساعد فى التخلص من هذه الآفة، ومجاهدة النفس لئلا تبتلى بها مرة أخرى .

٧ ـ شغل أوقات الفراغ بالنافع المفيد من خلال وضع وتنفيذ برامج تعليمية وإعلامية، وترفيهية، وتدريبية، بحيث تتجاوب هذه مع الفطرة ولا تتعارض مع شرع الله ـ تبارك وتعالى ـ فإن هذا من شأنه أن يمتص الطاقات الكامنة عند هؤلاء، فلا يبقى هناك مجال لتنطع أو غلو[١] .

(١) انظر فى هذه الآفة : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف للدكتور يوسف القرضاوى بتصرف كثير، والتطرف المنسوب إلى الإسلام للدكتور يحيى هاشم بتصرف كثير .

obeikandl.com